

## الموريسكيون: التاريخ الشهيد

أ. زهير تغلات

(تونس)

وفي قرطبة وقفت أمام بوابة بيت خشبية

وبحثت في جيبي عن مفاتيح بيتي القديم

كما قال نزار قباني لم أذرف دمعة

لأن الجرح الجديد يخفي ندبة الجرح القديم<sup>(١)</sup>.

محمود درويش

**تمهيد:**

أعتقد أن مرور أربع مائة سنة على طرد الموريسكيين من الأندلس ليس بالحدث الهين الذي

يسهل تجاوزه، ذلك أن الموريسكيين بعد الطرد الجماعي بين عامي ١٠١٨ / ١٦٠٩ وسنة ١٠٢٣ /

١٦١٤ لم يبق منهم باعتبارهم أمة لها هويتها لغة وحضارة وديناً أي أثر في أي جزء من أجزاء شبه

الجزيرة الإيبيرية<sup>(٢)</sup>.

(١) محمود درويش، أثر الفراشة، طبعة ١، بيروت، لبنان، رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٨ قصيدة: ((في قرطبة))، ص ١٩٤.

(٢) ليونارد باتريك هارفي، ((تاريخ الموريسكيين السياسي والاجتماعي والثقافي))، ضمن دراسات في الأدب الأندلسي، تحرير: سلوى

الخضراء الجيوسي، طبعة ٢، بيروت، لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٩، ص ٣١٧.

وإذا ما أمعنا النظر في الكيفية التي أحيت بها الأوساط الأكاديمية والثقافية العربية ذكرى الطرد، لتوقفنا عند مبادرات قليلة ومحتشمة لا تليق بهذا الحدث الخطر والخطير<sup>(١)</sup>. ولعل المثقف العربي ما يزال متعطشاً إلى مزيد التعرف على الأبعاد التاريخية والحضارية لهذه المأساة الإنسانية التي وسمت بدايات القرن ١١ / ١٧. فمن الخطأ والحيف ألا تستثمر مثل هذه اللحظات في إعادة إستنطاق التاريخ وتمحيص الوثائق للنظر في الفترة الأخيرة من حياة الموريسكيين. فإذا ما أمعنا النظر في هذه الحقبة، وتأملنا ما حدث للجماعات المسلمة في أصقاع إسبانيا، لا بد أن نعجب بأقلية عرقية قاومت بتحد كبير من أجل الحفاظ على هويتها الثقافية.

ولعل ما يلفت النظر في هذا المقام، بل ويبحث على الحيرة، أن جل الدراسات التي عُنت بالموريسكيين إبان الطرد وبعده. قد قام بها مؤرخون متخصصون من غير المسلمين، وإلى هذا ذهب الباحث التونسي عبد الجليل التميمي حين عد ((الجامعات الإسبانية والفرنسية وحتى الأمريكية سبابة إلى إصدار رسائل جامعية جيدة في هذا الباب بغير اللغة العربية))<sup>(٢)</sup>.

وقد أبانت هذه الدراسات أن الإنصراف إلى موضوع الموريسكيين الأندلسيين بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ / ٨٩٧ للميلاد آخر معازل المسلمين يبقى أحد المباحث الشائكة والمعقدة بالنسبة إلى التاريخين الإسلامي والإسباني على حد سواء.

(١) سبقت ندوة جربة حول الموريسكيين ندوتان: تمت الأولى في سليمان بإشراف اللجنة الثقافية الجهوية لهذه المدينة الموريسكية الأصلية وحضرها السيد والي نابل وسعادة سفير إسبانيا بتونس (أفريل ٢٠٠٩). وتمت الثانية في قمرت نظمها مركز التميم للبحث العلمي بتونس (ديسمبر ٢٠٠٩).

(٢) عبد الجليل التميمي، ((واقع ومستقبل الدراسات التاريخية عن مأساة الموريسكيين بالأندلس)) المجلة التاريخية المغربية، (تونس)، السنة ١٥، العددان ٤٩، ٥٠، جوان ١٩٨٨، ص ٩٢.

ولا شك أن الفترة ((الحضارية الأندلسية السعيدة))<sup>(١)</sup>، قد ألفت بظلالها على لحظة أفول نجم المورييسكيين من سماء الأندلس، ولعل هذه اللحظات عينها من العطاء والخصب، قد حملت بعض الباحثين المتعصبين على العزوف عن الاهتمام بمأساة شعب حُرب في لغته ودينه وهويته الحضارية وخصوصيته الثقافية.

### المورييسكيون: الدلالة والأبعاد التاريخية:

يبدو أن مصطلح (المورييسكي) قد اكتنفه بعض الاختلافات. فلئن ذهب ليفي بروفنسال إلى أن هذا المصطلح ((يُطلق في إسبانيا على المسلمين الذين بقوا في البلاد بعد أن استولى الملكان الكاثوليكيان فرديناند وإيزابيلا على غرناطة يومي ٢ كانون الثاني عام ١٤٩٢ / ١٤٩٣، وبعد زوال حكم آخر أمراء بني نصر))<sup>(٢)</sup>. في حين ذهب الباحث محمد نجيب بن جميع إلى أن ((المورييسكيين هم المدجنون أي بقايا الأمة الإسلامية التي أجبرت هي وأبناءؤها على التنصر بالأندلس.. ومارسوا عقيدتهم سرّاً))<sup>(٣)</sup>. أما الباحث ليونارد باتريك هارفي، فلا يرى تطابقاً بين المورييسكيين والمدجنين، إذ قسم المسلمين في الأندلس إلى قسمين: ((قسم يعيش في مملكة غرناطة المستقلة المسلمة العربية اللسان في عهد بني نصر، وقسم آخر يعيش تحت حكم ممالك مسيحية يُطلق عليهم اسم المدجنين))<sup>(٤)</sup>.

(١) عبد الجليل التميمي، ((واقع ومستقبل الدراسات التاريخية عن مأساة المورييسكيين بالأندلس))، ص ٩١.

(٢) ليفي بروفنسال، ((المورييسكيون))، ضمن دائرة المعارف الإسلامية، ط. II، ١ / ٨٣٩.

(٣) محمد نجيب بن جميع، ((أهمية الأدب الأليميادو المورييسكي في المعجم الإيتيمولوجي القشتلي لخوان كوروميناس))، دراسات أندلسية، (تونس)، العدد ٦، جوان ١٩٩١. ص ٥٩، ٦٠.

(٤) ليونارد باتريك هارفي، ((تاريخ المورييسكيين السياسي والاجتماعي والثقافي))، ص ٣١٨.

ويوجه هارفي النقد إلى ليفي بروفنسال، ويعتبره مجانباً للصواب حين أشار إلى أن كانون الثاني عام ٨٩٧ / ١٤٩٢، بداية فترة موريسكية متميزة والحال أن تلك الفترة لم تشهد سوى زيادة في عدد المدجنين، يقول في هذا الصدد موجهاً نقده لبروفنسال: ((ومن المؤكد أنه ليس في الوثائق المعاصرة أية إشارة إلى كلمة موريسكي في تلك الحقبة))<sup>(١)</sup>.

ولا شك أن معالجة هارفي لهذا المصطلح تجعلنا نقف على ضرب من التفريق بين الموريسكيين والمدجنين وأنه من المجازفة أن نقر بوجود الموريسكيين قبيل سقوط غرناطة أو بعيد ذلك.

كما يُبدي نفس الباحث بعض الإحتراز على تعميم استخدام هذا المصطلح، لأنه ينطوي على تهميش هذه الجماعة وهضم حقها في الاستمرار، وهو في الآن نفسه علامة تمييز وتصنيف وإخضاع لسلطة محاكم التفتيش، ولعل هذه المسألة تقودنا إلى التساؤل عن مدى حرية المسلمين في ممارسة دينهم في إسبانيا في ١٠ / ١٦؟

إن جل البحوث المهمة بتاريخ الموريسكيين السياسي والاجتماعي والثقافي قد أجمعت على السياسة التنكيلية لمحاكم التفتيش المسيحية الإسبانية ((فما حل بالمورسكيين الأندلسيين بعد سقوط غرناطة وحتى طردهم النهائي سنة ١٠١٨ / ١٦٠٩ يعد أشنع مأساة إنسانية وأفظعها عرفها التاريخ البشري على الإطلاق))<sup>(٢)</sup>.

لقد أمنت محاكم التفتيش في إجتثاث الموريسكيين من جذورهم الثقافية الإسلامية إجتثاثاً، وعملت على تفكيك نظامهم الاجتماعي تفكيكاً لا نهضة بعده، فتم تحجير استعمال الألقاب العربية ومنع أداء الشعائر الدينية الإسلامية في الجهر والسر واقتفاء أثر كل من يخالف هذه التعاليم الكنسية

(١) ن. م، ص ٣١٩.

(٢) عبد الجليل التميمي، ((واقع ومستقبل الدراسات التاريخية عن مأساة الموريسكيين بالأندلس)) ص ٩٣.

وسجنه أو حرقه أو دفنه حياً ((فالموريسكيون يمثلون السم والحشرات الطفيلية والنبته السيئة في حقل كنيسة إسبانيا أو أنهم الذئاب المخربة والثعابين والعقارب والحيوانات البشعة السامة التي كان سمها العنيف يقتل كثيراً))<sup>(١)</sup>.

ومما لا شك فيه أن هذا الخطاب يتضمن حقداً عنصرياً دينياً وتعصباً دينياً مقيتاً تجسم على أرض الواقع في الاستيلاء على أملاك الموريسكيين وضم أحباس المساجد إلى أملاك الكنيسة الكاثوليكية. فقد ((سجلت وثائق محاكم التفتيش بكثير من التفصيل الاستيلاء على ١٠٠.٠٠٠ هكتار من الأراضي الموريسكية سنة ٩٧٦/ ١٥٦٨ بتعلة عدم الإستظهار بحجج التملك))<sup>(٢)</sup>.

### الموريسكيون: الصمود والحفاظ على الهوية الحضارية:

رغم سياسات التنكيل ومحاولات إجتثاث كيان الموريسكيين وتصفية وجودهم الجسدي والحضاري، فإن هذه الجماعات المسلمة قد أبدعت صيغاً وآليات إقتضاها الظرف العصيب بها استطاعت الانحناء للعاصفة ومقاومة تيار التنصير الجارف. فما هو الأسلوب الذي إبتدعه الموريسكيون في الحفاظ على الهوية الحضارية؟

إزاء سياسة التعذيب والإبادة الجماعية وافتكاك الأطفال في مرافئ الترحيل القسري لتذويهم في المجتمع الإسباني الكاثوليكي، وجد الموريسكيون أنفسهم مجبرين على البحث عن مسلك يبقون فيه على قيد الحياة خاصة وأن إخوانهم المسلمين في بلاد أخرى لا يُرتجى منهم العون. لقد سُدت أمامهم السبل، وأضحوا مخيرين بين ثلاثة طرق: إما اعتناق المسيحية اعتناقاً لا تراجع بعده، وإما مقاومة

(١) لوي كارديال، ((الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون: المجاهدة الجدلية (١٤٩٢-١٦٤٠م))) مع ملحق بدراسة عن الموريسكيين

بأمريكا، تعريب وتقديم: عبد الجليل التميمي، تونس، ١٩٨٣، ص ١٠٠.

(2) Jeanne Vidal, Quand on brulait les morisques 1544- 1621, Nimes, 1986, p113.

التنصير وقبول العقاب الجماعي ونتائجه القاسية من التهجير إلى التقتيل، وإما تنصر شكلي زائف، يحافظ فيه المنتصر على دينه سراً إذ لا يُسمح له البتة بممارسة شعائره علناً، بل أضحت المجاهرة برفض التنصر مخالفة تقتضي إنزال أشد العقاب بالرفض.

ويمكن القول أن الموريسكيين في قلب هذه المنحة واللحظات العصبية أجبروا على أن يتدعوا إسلاماً في صيغته الموريسكية، تتجلى أهم ملامحه في التنصر الشكلي، على أن يظل هذا المنتصر وفيّاً لدين أجداده سراً، ((وكان الذين إختاروا هذا السبيل هم الجماعة التي ندعوها باسم الموريسكيين))<sup>(١)</sup>. وقد إختار هؤلاء التشبث بموطنهم والإخلاص لدينهم سراً إستناداً إلى إجتهدات مفتي وهران عبد الله بن بوجمعة المغراوي<sup>(٢)</sup>. ويبدو أن هذه الفتوى هي التي أسست لصيغة الإسلام الموريسكية في معرض إجابات هذا المفتي عن المشكلات التي عرضت أمامه لمعاناة الموريسكيين اليومية في مجتمع نصراني شديد التعصب لا يقبل بالآخر المسلم المختلف ديناً وثقافة، فأفتى بالتساهل في بعض القواعد والمفاهيم المحددة في الإسلام، حتى يتفادى الموريسكيون الإلقاء بأنفسهم إلى التهلكة، فمحنة الإكراه لا يكتوي بنارها إلا من كابدها، ومن هذه الفتاوى التي لا تصلح إلا للمجتمع الموريسكي نذكر:

- يمكن الإستعاضة عن الجهر في الصلوات ببعض الإشارات الخفية.
- يمكن التوقف عن شرط التطهر، وعند الحاجة يمكن الإيماء إلى الغرض الطاهر.
- يمكن للموريسكي أن يأكل لحم الخنزير إذا ما أكره على ذلك، ولم يجد بُدّاً من الإمتناع حفاظاً على حياته.

- يمكن تعاطي الربا شريطة أن يُنفق الربح على الفقراء.

(١) ليونارد باتريك هارفي، ((تاريخ الموريسكيين السياسي والاجتماعي والثقافي)) ص ٣٢٦.

(٢) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن بوجمعة المغراوي الوهراني الفاسي المالكي (توفي ٩٢٩ / ١٥٢٢).

- إذا ما أكره المسلم على إنكار دينه في العلن، عليه حفظ ذلك في قلبه<sup>(١)</sup>.

تقودنا هذه الفتاوى على طرفتها إلى الإقرار بدور الفقهاء واجتهادهم المحكوم بمبدأ التقية في التفاعل مع فئة من المسلمين تعيش الحصار وترزح تحت نير الإكراه، فكانت التقية مهرباً إلى النجاة بما هي مصطلح يفيد تعليق المطالب الدينية عند الوقوع تحت الإكراه والتهديد بالأذى، وقد قال الطبري بصدد هذه العبارة: ((إذا أكره إنسان على قبول الشرك فقبله بلسانه وقلبه ينكره، لينجو من أعدائه فلا لوم عليه لأن الله يحاسب عباده على ما في قلوبهم))<sup>(٢)</sup>.

ولعل الطبري قد وجد في العبارة القرآنية ((إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ)) الواردة في آية لعن المرتدين: ((مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ))<sup>(٣)</sup>، عبارة الاستثناء المنقذة.

هذه بعض ملامح الصمود على الجبهة الدينية، فما هي تجليات المقاومة على الواجهة اللغوية؟ لقد كتب الموريسكيون نصوصاً شديدة التأثير بروح الهوية العربية الإسلامية، وهي كتابات إسبانية تستخدم الحروف العربية. وقد أطلق الباحثون المحدثون على هذه النصوص الشديدة الخصوصية تسمية الأدب الألخميادو.

ويعد استعمال الحروف العربية علامة دالة على انتماء هذه المجموعات إلى الأمة الإسلامية. ((وقد كانت الكتابة بالألخميادو كتابة سرية ومن إنتاج أقلية موريسكية من القرن الرابع عشر إلى القرن السابع عشر))<sup>(٤)</sup>.

(١) ليونارد باتريك هارفي، ((تاريخ الموريسكيين السياسي والاجتماعي والثقافي)) ص ٣٢٦.

(٢) راجع: مقال: << Takiya >> بدائرة المعارف الإسلامية (Ecylopeadia of Islam).

(٣) راجع: سورة النحل ١٦، الآية ١٠٦.

وقد إتفق دارسو هذا الأدب على أن جل مواضيعه قد شملت أساساً الفقه المتصل بالإسلام وقواعده، كما إنطوى على أحلام بسقوط النصرانية ورجوع الإسلام إلى الأندلس، ولم تخل المخطوطات الأخمياوية من تصوير لمعاناة الموريسكيين اليومية وكفاحهم في سبيل تثبيت إلتئامهم العربي الإسلامي والتمسك باللغة مقوماً من مقومات الهوية. ولا جدال في أن هذه المخطوطات الزاخرة بمنجزات الحضارة العربية بالأندلس، قد أضحت حلقة معرفية هامة في مسيرة الفكر البشري قاطبة. ولعل هذا التشبث بالهوية الدينية واللغوية جعل الموريسكيين هدفاً لكراهية شاملة من طرف محاكم دواوين التفتيش فضيقوا عليهم الخناق، وبلغ التعصب الديني درجة من العمى أدت إلى حرق مئات الآلاف من المخطوطات العربية في الساحات العمومية بالأندلس ومنع تعليم اللغة العربية، وملاحقة الفقهاء والمعلمين وعقاب كل من يعثر على كتب عربية في بيته<sup>(٢)</sup>.

وقد كانت الطبقة النيرة والمتقفة من الموريسكيين هدفاً لسخط محاكم التفتيش، وأدى هذا الحصار والتضييق والمنع إلى تراجع اللغة العربية فشاع اللحن وناهزت نسبة الرجال الموريسكيين الذين لا يحسنون لغة الضاد ٧٢% في النصف الثاني من القرن ١٠ / ١٦، أما النساء فكان في تلك الحقبة أميات تماماً<sup>(٣)</sup>.

إن في تراجع اللغة العربية وضرب الحصار والمنع على الأدب الأخمياوي، علامة على الإمعان في الحكم بالإنقراض على كيان الموريسكيين الثقافي والحضاري بعد الإجتثاث السياسي والعسكري.

(١) محمد نجيب بن جميع، ((أهمية الأدب الأخمياوي الموريسكي في المعجم الإيتيمولوجي القشتالي لخوان كوروميناس)) دراسات أندلسية، (تونس)، العدد ٦، جوان ١٩٩١. ص ٦٠.

(٢) عبد الجليل التميمي، ((واقع ومستقبل الدراسات التاريخية عن مأساة الموريسكيين بالأندلس))، ص ١٠٢.

(٣) ن. م. ص ١٠٣.



وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن هذا التهميش ومصادرة الحق في الوجود، لا تمس المجتمع الموريسكي فحسب بل تتجاوزه لتطال ((رصيداً فنياً وحضارياً ومعرفياً لم تعرفه مجتمعات البحر الأبيض المتوسط الأوروبية إلا بعد عصر النهضة))<sup>(١)</sup>.

ولئن نوه جل الذين درسوا التراث الموريسكي بدور الفقهاء واجتهاداتهم في الحفاظ على هذا الرصيد، فإنهم قد أولوا عناية خاصة بصمود المرأة الموريسكية التي ابتدعت أنموذجاً فريداً لتجاوز هذه المحنة التي عاشها المجتمع الموريسكي خلال القرن ١٠ / ١٦، فعليها يتوقف تحضير المأكّل والمشرب. والنظام الغذائي إذا ما نظرنا إليه من زاوية أنثروبولوجية يكون في كليته منظومة رمزية من العناصر تشكل لغة ويعمل كل مجتمع من هذا المنطلق على تشفير رسائل تمكنه من إضفاء معنى يتعلق بجزء مما هو عليه أي هويته<sup>(٢)</sup>. ومن هذا المنطلق يصبح الغذاء الموريسكي خياراً غذائياً ثقافياً يخضع لاختيارات المجتمع بأسره. ولئن بدا في الظاهر فعلاً فردياً تقوم به المرأة الموريسكية، فإنه مشغل جماعي وتعبير ثقافي وجودي يتنزل ضمن إستراتيجيات الحفاظ على الخصوصية وترسيخ الهوية. لقد ظل الموريسكيون بعد سقوط غرناطة متمسكين بكل مقومات الهوية الثقافية والحضارية، يقاومون من أجل البقاء في موطنهم. وكان هاجس الطرد يقض مضجعهم، فليس من الهين ترك الأملاك والديار والموطن نحو مصير مجهول.

وأمام تنامي السياسات المتطرفة والتعصب الديني صدر مرسوم في شهر جويلية من سنة ١٦٠٩ / ١٠١٨ للميلاد. يبدو أنه أول مرسوم ينادي بالطرد الجماعي واجتثاث الموريسكيين تماماً في

(١) عبد الجليل التميمي، ((واقع ومستقبل الدراسات التاريخية عن مأساة الموريسكيين بالأندلس)) ص ١٠٤.

(2) BRISEBARRE (Anne- Marie) Aroun: Presentation du Numero 74 du journal des Antropologues, (Antropologie des choix alimeentaires). P9.

بداية القرن ١١ / ١٦، ويكاد يجمع جل الدين إطلعوا على الوثائق الإسبانية ومحاضر محاكم التفتيش في تلك الحقبة التاريخية على أن عملية الطرد قد تواصلت حتى عام ١٠٢٣ / ١٦١٤. ((فقد أعدت سجلات دقيقة عن المطرودين، ولم تكن الأرقام محض تقديرات إذ بلغ العدد حوالي ١٤٠. ٢٧٢، وهذا أدنى رقم محتمل))<sup>(١)</sup>. وقد تباينت أصداء الأخبار المحدثّة عن عملية الطرد وردود الأفعال المختلفة، بل والمتناقضة أحياناً. فمن المسيحيين من تعاطف مع الموريسكيين وما كابدوه من ممارسات لا إنسانية، ومنهم من عبر عن إبتهاجه بـ «مذبحة الأعداء القدامى». أما الموريسكيون، فمنهم من وجد الطرد هروباً من واقع العذاب المرير مبشراً بنهاية مأساة وبداية طريق جديد نحو الإسلام والسلام. في حين أن الآلاف منهم تمسكوا بالبقاء ورفضوا التفريط في أملاكهم متحمّلين ما قد ينجر عن ذلك من نتائج قاسية<sup>(٢)</sup>.

ولعل ما يدعم هذا المنحى إستناداً إلى وثائق محاكم التفتيش ((بقاء الإسلام في مدينة غرناطة إلى منتصف القرن الثامن عشر، فقد كان عدد كبير من القساوسة والمسؤولين الإداريين والعسكريين الإسبان يمارسون شعائر الدين الإسلامي سرّاً، وقد قبض عليهم سنة ١١٤٠ / ١٧٢٧ وقدموا إلى المحاكمة، فقضت المحاكم بسحب أملاكهم وحرقتهم في وسط الكنائس))<sup>(٣)</sup>. بيد أن من الباحثين من لا يذهب هذا المذهب ويعتبر أن كل شيء قد انتهى بين ١٠١٨ / ١٦٠٩ و ١٠٢٣ / ١٦١٤.

(١) ليونارد باتريك هارفي، ((تاريخ الموريسكيين السياسي والاجتماعي والثقافي)) ص ٣٥١.

(٢) عبد الجليل التميمي، ((واقع ومستقبل الدراسات التاريخية عن مأساة الموريسكيين بالأندلس))، ص ١٠٥.

(٣) رافيل دولارا قارسيا، ((بقاء الإسلام في مدينة غرناطة في منتصف القرن الثامن عشر))، المجلة التاريخية المغربية، (تونس)، (القسم الفرنسي)، العددان ٤٣، ٤٤، ١٩٨٦. ص ص ٤٩، ٥٨.

فقد طرد الموريسكيون جميعاً، وإن أفلح بعضهم في التملص من الطرد، فقد تم تذويبهم في المجتمع الإسباني الكاتوليكي لأنه لا يعرف في ما بعد عن وجود أية جماعة إسلامية واضحة المعالم قد تخلفت هناك<sup>(١)</sup>.

### الموريسكيون: حضارة ترحل فتثمر:

لئن تراوحت ردود فعل المجتمعات المستقبلية إزاء الوافدين الجدد بين القبول والرفض، فإنه يمكن القول أن نزعة المعاشرة والاندماج كانت غالبية<sup>(٢)</sup>.

فقد حاول الموريسكيون في المناطق التي إحتلّوها فيها بالسكان المحليين مقاومة التلاشي، فظلوا مفتخرين بأصلهم الأندلسي وخاصة في المناطق التي مثلت تجمعات للجالية الموريسكية كما هو الشأن في شمال إفريقيا. وليس أدل على ذلك من الأسماء ذات الصبغة الإسبانية التي مازال يحملها كثير من هؤلاء الناس مثل: (كاستيو)، و(بلانكو)، و(نيفرو) على الرغم من مرور أربعة قرون على الطرد<sup>(٣)</sup>. ولا نجد آثار الحضور الموريسكي في الألقاب العائلية فحسب بل في المشاهد المعمارية أيضاً. فقد أشار الباحث لطفي بن ميلاد إلى الصباط كعلامة معمارية موريسكية متميزة، فما يزال هذا الشكل ماثلاً في أكثر من حي بأقواسه المتعددة في مدن تستور وقلعة الأندلس ومترل بوزلفة وتونس،

(١) لوسي لوبيز بارالت، ((التراث الإسلامي في الأدب الإسباني))، ضمن دراسات في الأدب الأندلسي، تحرير: سلوى الخضراء

الجيوسي، طبعة ٢، بيروت، لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٩، ص ٧٣٧.

(٢) ليونارد باتريك هارفي، ((تاريخ الموريسكيين السياسي والاجتماعي والثقافي))، ص ٣٥٣.

(٣) ليونارد باتريك هارفي، ((تاريخ الموريسكيين السياسي والاجتماعي والثقافي))، ص ٣٥٣.

وقد حافظت العائلات الموريسكية إلى زمن غير بعيد على تفوقها الاجتماعي وندجسيتها الحضارية<sup>(١)</sup>.

وقد كان لامتزاج الأندلسيين بأهل تونس أثر عظيم في الصنائع اليدوية وتجليد الكتب وزخرفتها وعرض البضائع للبيع وتطوير أساليب الفلاحة وتمهيد الطرقات وفن الطبخ والحلويات وتحضير العطور.

وأنصرف الأندلسيون الوافدون على تونس إلى الاهتمام بالبيئة فأحيوا ((الزراعات السقوية والأشجار المثمرة مستخرجين مياه الآبار باستعمال النواعير وطواحين الريح. وبرعوا في تسقيف المنازل بالقرميد وزخرفة الزوايا والجوامع والصوامع بالآجر والجبس المنقوش والجليز الملون))<sup>(٢)</sup>.

(١) لطفى بن ميلاد، ((الأصول الوسيطية لقرية موريسكية: منزل بوزلفة نموذجاً))، دراسات أندلسية، (تونس)، العدد ٤١، جانفي، جوان ٢٠٠٩. ص ٨٢.

(٢) أحمد الحمروني، المحجرات الأندلسية إلى البلاد التونسية، طبعة ١، تونس، مطبعة ميدياكوم، ٢٠٠٩. ص ١٣.

## خاتمة:

لقد بان إذن، أن التراث الموريسكي زاخر متعدد معقد، يتردد صده إلى اليوم في الأدب الإسباني، وقد رافق الموريسكيين في حلهم وترحالهم، وحيثما أستقر أينع فأثمر. وقد صمد هذا التراث رغم محاولات التصفية الحضارية، بيد أن هذا المبحث المتشعب ما زال لم يبح بكامل أسرارهِ، مما حدا ببعض الجامعات الإسبانية والفرنسية والأمريكية إلى تأسيس علم الموريسكيولوجي<sup>(١)</sup> لمزيد تعميق الدراية بهذه الجماعة المسلمة في الأندلس وملابسات طردها، وذلك بمزيد إستنطاق الوثائق العربية والألمانية والإسبانية الموثقة في عدد غير قليل من المكتبات العربية والأجنبية<sup>(٢)</sup>.

ولعل ما يبعث على التفاؤل أن جيلاً جديداً من الباحثين العرب بدأ يشغلهم الهاجس الموريسكي، فوطنوا أنفسهم على البحث فيه وتجاوزوا عقبة اللغة، فانكبوا على تمحيص الوثائق والدفاتر التي تركتها محاكم التفتيش، وأُستنطاق مخطوطات النصوص الألمانية، وهذا في حد ذاته إسهام عربي في علم مستحدث واعد، ذلك أن الحقيقة التاريخية إنسانية تعلو فوق الحسابات الدينية والسياسية والقومية.

وأكد أن ضربة البداية تكون بتحديد المصطلحات للولوج إلى مواضيع أخرى تتعلق بتاريخ الموريسكيين ويتعلق خاصة بأدبهم، وقد حاولت ندوة جربة حول الموريسكيين (٩ / ٤ / ٢٠١٠) أن تدرس هذا الأدب المهجين ولكن لم تنس التعرض إلى الأدب الأندلسي الأصل. إن وضع النوعين جنباً إلى جنب يبرز مدى ما وصل إليه تراثهم من تدهور يعكس ما نالهم من قهر لا يضاهيه إلا ما يعانيه شعب آخر ينتمي إليه صاحب الأبيات الشعرية في مطلع هذا البحث./.

(1) Moriscologie.

(2) عبد الجليل التميمي، ((واقع ومستقبل الدراسات التاريخية عن مأساة الموريسكيين بالأندلس))، ص ٩٥.